تاريخ وجغرافية بعض بلاد النوبة من خلال النقوش المصرية القديمة فى عهد المملكتين القديمة والمتوسطة

على أحمد قسم السيد

يعتمد علماء التاريخ القديم فى كتابة التاريخ على الاستنتاجات التى يتوصلون اليها من خلال دراساتهم للمخلّفات الأثرية التى تركها القدماء. وتتمثل هذه المخلّفات فى المعدات التى كانوا يستعملونها فى حياتهم اليومية مثل الأوانى (فخارية كانت أم معدنية) وأدوات الحرب والصيد والزينة والمبانى بمختلف أنواعها والكتابات التى تحكى عن الأوجه المختلفة لنشاطهم فى كافة المجالات. وربما كانت الأخيرة هذه أصدق مصدر يمكن أن نستقى منه المعلومات المتعلّقة بالحقبة التاريخية التى يراد تناولها، ذلك لأنّها تكون - فى أغلب الأحيان - قد كتبت فى نفس زمن الحادثة وتمّت روايتها على لسان شخص معاصر لها.[1]

ومن هنا اكتسبت الكتابة أهميتها بين الدلائل الأخرى من حيث سردها للأحداث صراحة دون حاجة منّا للتفسير والتخمين والمقارنة. وقد امتازت الحضارة المصرية دون سائر حضارات العالم القديم بكثرة النقوش والكتابات التى تتناول الأحداث التى وقعت فى مصر وما جاورها منذ تاريخ بداية كتابة اللّغة الهيروغليفية فى حوالى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد. وقد بدأت هذه الكتابة بشكل تصويرى للأحداث وذلك فى الفترة التى سبقت توحيد مصر فى سنة ٣١٠٠ ق.م تقريبا، ثم ما لبثت أن تطوّرت تطوّرا سريعا واتخذت لنفسها حروفا وكلمات وقواعد. وقد ساعد تطوّر هذه اللّغة على تدوين بعض الأحداث التاريخية الهامّة التى يرجع تاريخها لهذه الفترة ممّا يسّر مهمة دراسة الأوضاع السياسية والدينية التى كانت سائدة فى مصر القديمة كما ساعد أيضا على فهم طبيعة العلاقات التى كانت تربط مصر بالبلاد المجاورة لها خاصة بلاد النوبة التى ارتبطت بمصر منذ أقدم العصور عن طريق النيل والطرق الصحراوية التى كانت تمر بالواحات المنتشرة فى الصحراء الغربية. وقد كان هذان الرباطان عاملا فى جعل بلاد النوبة، دون غيرها من البلاد التى دخلت فى علاقات مع

الممالك المصرية القديمة، أوثق صلة بمصر. وكان لهذه الصلة القوية التى ربطت بين البلدين - ودّية كانت أم عدائية - الفضل فى ورود ذكر بلاد النوبة وأخبار أهلها فى النقوش المصرية القديمة.

النقوش فى عهد المملكة المصرية القديمة

تجيء أقدم إشارة لبلاد النوبة والقومية النوبية [1] فى ذلك النقش التصويرى الذى خلفه الملك جر،شالث ملوك الأسرة الأولى فى المملكة المصرية القديمة،فى حوالى سنة ٣٠٥٠ ق.م. عندما غزا هذا الملك بلاد النوبة صوّر لنا هذه الحادثة على صخور جبل الشيخ سليمان الواقع على الضفّة اليسرى من النيل الى الجنوب قليلا من وادى حلفا. [2] فى هذا النقش التصويرى نرى قاربا من النوع الذى ساد استعماله فى بداية عهد المملكة المصرية القديمة وقد علّق فى مقدمته شخص نوبى على ما يبدو،بينما صوّر أسفل القارب ،أى داخل الماء، أناس غرقى . وفى وسط المنظر نرى رمزا لمدينتين وقد جثم على احداهما الاله حورس. ويعتقد أنّ هذه المدينة ربما كانت مدينة بوهين الواقعة الى الشمال مباشرة من مكان النقش والتى كثيرا ما ارتبط اسمها بالاله حورس بصفته سيدا وحاميا لها. وفى شمال المنظر صور أسير نوبى وقد حرص الرسّام على إظهار القوس فى يديه الموثوقتين وراء ظهره حتى يفهم الناظر الى النقش أنّ هذا الأسير نوبى الأصل باعتبار قيام القوس رمزا مميزا للنوبيين وبلادهم. [3]

وقد لازم رسم القوس وذكر القومية النوبية منذ تاريخ هذا النقش حين صار المصريون يطلقون على البلاد الواقعة الى الجنوب من بلادهم اسم (تا سوتى) أى أرض القوس ،وذلك لأنّ النوبيين قد امتازوا على غيرهم من القوميات التى عاصرتهم بمهارتهم فى رمى السهام. وقد حافظ هؤلاء النوبيون على براعتهم فى استعمال هذا النوع من السلاح منذ ذلك العصر وحتى منتصف القرن السابع الميلادى عندما غزت بلادهم الجيوش الاسلامية بقيادة عبد الله ابن سعد بن أبى السرح فقد تصدّى النوبيون لتلك الجيوش ورشقوها بسهامهم التى كانوا يصوّبونها نحو أعينهم فلا تخطئها حتى أسماهم المسلمون "رماة الحدق". [4] ولفظ (تا سوتى) لفظ عام كان يطلق أحيانا وبصفة غير محدّدة على البلاد التى تقع الى الجنوب من مصر.

لقد أدرك المصريون ومنذ بداية عهد المملكة المصرية القديمة (٣١٠٠ ق٠م٠ تقريبا) أهمية وضع حدود سياسية تحد بلادهم من ناحية الجنوب ٠ وكان من المفترض - إذا راعى المصريون أنّ بلادهم هى تلك التى يسكنها أساسا مصريون - أن تكون حدودهم عند جبل السلسلة ٠[٥] إلاّ أنّهم احتلّوا المنطقة التى تمتد من جبل السلسلة شمالا وحتى الشلاّل الأول جنوبا وضمّوها لبلادهم وجعلوها أولى مقاطعاتهم فى الجنوب وأطلقوا عليها اسم (تا سوتى) وجعلوا عاصمتها تلك المدينة التى عرفت فى النقوش المصرية باسم 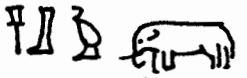 (أبو) وهى التى اشتهرت فى العصر الاغريقى - الرومانى باسم الفنتين٠

ربما كان غرض المصريين من احتلال هذا الجزء من بلاد (تا سوتى) هو ضمان استمرار جريان النيل نحو بلادهم فى الشمال بعد تحكيم سيطرتهم على "منابعه"٠ فقد اعتقد قدماء المصريين أنّ النيل ينبع من بين صخرتين ضخمتين فى منطقة الشلاّل الأول٠[٦]

إنّ إطلاق اسم (تا سوتى) على هذه المقاطعة المصرية فيه اعتراف صريح من جانب المصريين بأنّ هذه البلاد، وإن كانت تابعة لهم من الناحية الادارية، إلاّ أنّ سكانها يختلفون عنهم من الناحية العرقية٠ وكذلك يرى قاردنر أنّ الفنتين منطقة نوبية وأنّ أهلها لا يتكلّمون المصرية٠ وأنّها كانت نقطة - أمامية أخضعها المصريون اداريا إلاّ أنّها لم تخضع تماما للأثر الثقافى المصرى٠[٧] وقد استمرّت منطقة الفنتين تمثل النقطة الحدودية الفاصلة بين الدولة المصرية وبلاد النوبيين على مر العصور٠ ففى عهد المملكة المصرية المتوسطة (٢١٥٠-١٧٨٠ ق٠م٠ تقريبا) نجد أنّ الأدب المصرى يشير الى هذه الحقيقة بصورة واضحة وذلك فى قصة (الملاح الغريق) عندما قال صديق الأمير لأميره الذى كان يبدو عليه الاكتئاب إثر عودتهم من مهمّة ما فى الجنوب "٠٠٠٠٠٠٠٠ لقد وصلنا حدود الواوات[٨] وتخطينا جزيرة سنموت ٠٠٠٠٠٠٠٠ ووصلنا بلادنا ٠٠٠٠٠٠٠٠٠"٠[٩] حدثت هذه القصة أثناء الفترة التى كانت فيها كل بلاد النوبة حتى منطقة سمنة جنوب الشلاّل الثانى خاضعة للاحتلال المصرى ومع ذلك نجد أنّ صديق الأمير يشير الى بلاد الواوات كبلاد غير مصرية وإن كانت تابعة

للادارة المصرية.

لعلّ أهم وأقدم النقوش المصرية التى تحدّثنا عن جغرافية بلاد النوبة ذلك النقش الذى خلفه لنا حرخوف ،حاكم الفنتين، والذى عاش فى عهد الأسرة السادسة فى المملكة المصرية القديمة. فقد قام هذا المصرى بأربع رحلات الى بلاد النوبة بغرض التجارة معها،وترك تفاصيل هذه الرحلات منقوشة على جدران مقبرته التى بناها فى قبّة الهواء قبالة أسوان.(١٠)

يذكر حرخوف أنّه ذهب أول مرّة الى بلاد 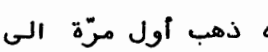 (يام) فى صحبة والده ايرى بأمر الملك مرنرع وإنّ الرحلة الى تلك البلاد استغرقت سبعة أشهر عادا بعدها محمّلين بمنتجات تلك البلاد. أمّا فى رحلته الثانية فقد توجّه حرخوف نحو بلاد يام وحده وذلك عن طريق الفنتين،وهذا يعنى أنّه صعد النيل من منطقة الشلاّل الأول وأنّه مرّ ببلاد 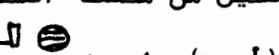 (أرجت)و 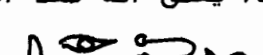 (معخر) و (تررس) و 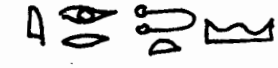 (أرجج) وكلّها أسماء لبلاد أجنبية لوجود فى آخر كلّ منها وهو الرّمز الدّال على البلاد الأجنبية فى النقوش المصرية. إذا نظرنا الى النّص المتعلّق بهذه الرحلة يتضح لنا أنّ حرخوف قد اتخذ الطريق المحازى للنيل للوصول الى بلاد يام،ثم يذكر لنا أنّه مرّ بامارة أرجت النوبية ثم بعد ذلك ببقية الامارات النوبية الأخرى. وبذكره لامارة أرجت أولا يمكن أن نقول إنّ هذه الامارة تقع الى الجنوب مباشرة بعد الفنتين وعلى الضفة اليسرى من النيل وهى منطقة تمتاز بوجود المرتفعات فيها،وهذا ما ذكره حرخوف صراحة فى النص المتعلّق برحلته الثالثة.(١١) كما أنّها كانت آخر بلد نوبى يذكره عند عودته من يام الى الفنتين فى رحلته الثانية. أمّا أمارات معخر وتررس وأرجج فيبدو أنّها أصغر وأقل أهمية من امارة أرجت وأنها تقع الى الجنوب على ضفتى النيل بين أرجت ويام.

هناك امارة نوبية أخرى لم يرد ذكرها فى نصوص الرحلة الى يام بل ذكرها حرخوف عند عودته من يام فى رحلته الثانية ألا وهى امارة 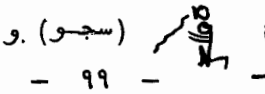 (سجو) .والتى يبدو أنّها تقع الى

الشمال من بقية الامارات النوبية الصغيرة سالفة الذكر وأنّها ربما كانت على نفس عظمة امارة أرجت وذلك لارتباط ذكرها مع هذه الامارة فى أربع مناسبات فى نصوص الرحلتين الثانية والثالثة. بل أنّ إحدى فقرات نص الرحلة الثالثة توضح بصورة قاطعة أنّ امارة سجو تقع الى الجنوب من امارة أرجت وذلك عندما أراد حرخوف أن يصف موضعا جغرافيا فقال إنّه يقع الى الجنوب من أرجت والى الشمال من سجو.(١٢) وهناك من يضع هذه الامارة فى نفس هذا الموضع الذى حدّدناه لكن على كلتا الضفتين من النيل.(١٣)

وإذا أخذنا بهذا الرأى فإنّ هذا يعنى أنّ امارة سجو تحدّ شمالا وعلى الضفة اليسرى بامارة أرجت وعلى الضفة اليمنى بامارة واوات.

بعد نهاية عهد الأسرة المصرية السادسة وبحلول فترة الاضمحلال الأولى (٢٢٤٠-٢١٥٠ ق.م. تقريبا) نجد أنّ النقوش المصرية تكف عن ذكر هذه الامارات. ويرى بعض علماء المصريات أنّ هذه الامارات، بعد نهاية المملكة المصرية القديمة، فقدت ذاتيتها المستقلّة وأصبحت جزءا من اقليم واوات الذى صار منذئذ يغطى كل المنطقة الواقعة بين الشلاّلين الأول والثانى(١٤) والذى صار فيما بعد وطنا لتلك الحضارة التى عرفت باسم المجموعة - ج.

بالنظر الى نصوص رحلات حرخوف الأربع هذه، يتضح لنا أنّ بلاد يام كانت بمثابة الهدف الرئيسى لنشاطاته التجارية ونقطة النهاية لهذه الرحلات. وبالتالى يمكن أن نقول إنّها كانت تقع فى أقصى جنوب تلك البلاد التى ارتادها قدماء المصريين. وحاول بعض علماء المصريات تحديد الموقع الجغرافى لهذه البلاد. فجان يويوت يرى أنّ يام كانت تقع فى واحة دنكل(١٥) فى الصحراء الغربية الى الجنوب الغربى من الفنتين. إلاّ أنّ الدراسات التى قام بها مؤخرا كل د.م. ديكسون وفرتز هنتزا(١٦) قد أثبتت أنّ منطقة حوض كرمة هى المكان الذى ازدهرت فيه يام. وممّا يؤيد ذلك وجود أسماء بعض ملوك الأسرة المصرية السادسة وبعض المنتجات المصرية فى الدفوفة الغربية والتى يعتقد بأنّها كانت مركزا تجاريا يقصده المصريون الذين كانوا يأتون لهذه البلاد لشراء المنتجات الافريقية.(١٧)

وتجيء الدراسات التى أجراها كلّ من ك .زبليوس وكارل - هاينزبريزا مؤيدة لهذه النظرية ، إذ أنّهما يعتقدان أنّ كلمة يام التى كانت شائعة الاستعمال فى نقوش الأسرة السادسة تقابلها ، من الناحية اللّغوية ، كلمة 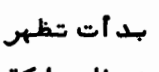 (ارم) التى بدأت تظهر بكثرة فى النقوش المصرية التى يرجع تاريخها لعهد المملكة المصرية الحديثة والتى تشير الى نفس منطقة يام.(١٨) كما أنّ الحفائر التى قام بها مؤخرا شارل بونية فى منطقة كرمة كشفت عن وجود عدد كبير من المنازل القديمة الصغيرة الحجم المبنية من اللّبن منتشرة الى الشمال من منطقة الدفوفة. وقد أثبتت الدراسات أنّ هذه المنازل قد بنيت خلال أكثر من فترة تاريخية واحدة ،(١٩) وهذا يدلّ على أنّ كرمة قد استمرّت تلعب دورا تجاريا هامّا فى تاريخ العلاقات الاقتصادية بين مصر والبلاد التى كانت تقع الى الجنوب منها طيلة هذه الفترات التاريخية. أمّا نظرية جان يويوت التى جعلت من واحة دنكل مهدا لحضارة يام فيجب أن نأخذها بحذر شديد وذلك لما فيها من عدم الواقعية. فمن خلال نقوش حرخوف التى تحدّثت عن رحلته الثانية لبلاد يام نفهم أنّه قد اتخذ من الفنتين نقطة انطلاق له نحو تلك البلاد وأنّ الرحلة قد استغرقت ثمانية أشهر.(٢٠) وإذا نظرنا الى خريطة مصر العليا نجد أنّ هذه الواحة تقع على مسافة مائة وستين كيلومتر تقريبا الى الجنوب الغربى من الفنتين، ولذلك فإنّه لا يعقل أن تستغرق الرحلة الى نقطة تقع على مسافة كهذه فترة الثمانية أشهر. أمّا النصوص التى تناولت تفاصيل رحلته الثالثة فتقول إنّ حرخوف قد توجّه تلقاء يام متخذا الطريق الصحراوى الذى يمرّ بالواحات حتى وصل بلاد يام حيث وجد أنّ زعيمها قد خرج لمقاتلة التمحو، أى اللّيبيين فى الصحراء الغربية ، وأنّه وبعد انجازه لمهامّه التجارية رجع عن طريق النيل حيث قابله زعماء أرجت وسجو وواوات. فإذا كانت واحة دنكل هى يام القديمة التى تعنيها هذه النصوص لما وجدنا ما يبرّر مرور حرخوف بهذه الامارات التى يقع بعضها جنوب موقع دنكل. إضافة الى ذلك فإنّ حرخوف عندما رجع من رحلته هذه كان محمّلا بمنتجات (٢١) لا يمكن أن توجد فى واحة صغيرة كواحة دنكل. وعليه فلنا أن نقول إنّ إمارة يام كانت الى الجنوب من إمارات معخر وتررس وأرجع

وأنّها كانت أكثر البلاد النوبية، المعروفة آنذاك، ايغالا نحو الجنوب وبالتالى من أكثر البلاد النوبية اتصالا بالعمق الافريقى. وأنّها بحكم موقعها الجغرافى،لم تكن خاضعة للنفوذ المصرى بدليل أنّ الملك مرنرع عندما جاء الى منطقة الشلاّل الأول بعد اعتلائه عرش مصر حضر اليه أمراء الميجا وأرجت وواوات لتقديم فروض الولاء والطاعة.(٢٢) أمّا أمير يام فلم يكن من بينهم ممّا يدلّ على أنّه لم يكن خاضعا بصورة أو بأخرى للنفوذ المصرى وبالتالى لم يكن ملزما بالحضور الى منطقة الشلاّل الأول لمقابلة الملك مرنرع.

كذلك من الأسماء الجغرافية التى أطلقها قدماء المصريين على البلاد التى تقع جنوب الشلاّل الأول اسم 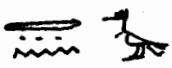 (تا نحسى)(٢٣) أى بلاد النحسى (٢٤) أى النوبيين. وهو اسم يطلق بصفة عامّة على كل البلاد الأجنبية التى تقع جنوب مصر شأنه فى ذلك شأن لفظ (تا سوتى). وقد وضع هذا الاسم القومية النوبية فى مصاف القوميات العالمية الأخرى المعاصرة لها،فقد قسّم قدماء المصريين الجنس البشرى - آنذاك - الى أربع قوميات(٢٥) :-

(أ) نحسيو (جمع نحسى) وهم النوبيون.
(ب) عامو (جمع عام) وهم الآسيويون.
(ج) تمحو (جمع تمح) وهم اللّيبيون.
(د) رمجو (جمع رمج) أى الناس ،وهم المصريون.

إنّ القوميات الثلاث الأول التى ذكرها المصريون هنا لم تكن بالطبع،كل القوميات التى ظهرت على مسرح التاريخ فى تلك الفترة، وإنّما هى القوميات التى كانت تربطها مع مصر علاقات سياسية أو اقتصادية. وقد حظى النحسيو،دون غيرهم، بورود ذكرهم فى النقوش المصرية بصفة متواترة وذلك بسبب العلاقات القوية التى كانت تربطهم بالمصريين. فقد اعتاد الملوك المصريون منذ عهد المملكة المصرية القديمة الاستعانة بهم فى حروبهم خاصة ضد البدو سكان الصحراء.(٢٦) كما كانت بلاد النحسيو المعبر الذى تمر من خلاله الصادرات الافريقية مثل العاج والأبنوس وريش النعام وبيضه وجلود الفهود فى طريقها لمصر.

كما رأينا من قبل فإنّ بلاد واوات كانت تبدأ من الشلاّل الأول شمالاً، أمّا عن حدودها الجنوبية فإنّ النقوش المصرية تخبرنا عنها تدريجيا ومع تقدّم الجيوش المصرية نحوها. وأقدم هذه النقوش هو ذلك الذى وجد بالقرب من كرسكو ويرجع عهده للسنة التاسعة والعشرين من حكم الملك أمنمحات الأول. يقول النقش: "لقد جئنا لاسقاط واوات."[٢٧] ولمّا كان الموضع الذى وجد فيه النقش يقع فى منتصف بلاد واوات المعروفة لدينا (بين الشلاّلين الأول والثانى) فإنّنا لا نعتقد بأنّ منطقة كرسكو تمثل أقصى جنوب واوات، وإنّما - استنادا على ما ورد فى النقوش - مرحلة أولى من مراحل الاستيلاء على هذه البلاد. وممّا يؤيد ذلك أنّ الملك أمنمحات الثانى ترك نقشا على صخور الشلاّل الأول يتحدث فيه عن زيارة تفقدية لبعض القلاع المصرية فى اقليم واوات الذى ربما احتلّته الجيوش المصرية حتى فرس.[٢٨] ثم يجيء بعد ذلك الملك سنوسرت الثالث والذى يعتبر من أعظم ملوك الأسرة الثانية عشرة فيضع لوحته الحدودية (Berlin 14735) فى قلعة سمنة وبهذا يكون كل اقليم واوات قد أصبح تحت الادارة المصرية.

ما اشتهر اسم لبلاد النوبة وذاع صيته وورد ذكره فى النقوش المصرية بصورة متكررة مثل كوش[٢٩] ذلك الاسم الذى أطلقه قدماء المصريين على تلك البلاد التى كانت تقع وراء الشلاّل الثانى والتى طالما وقفت فى وجه تقدّم القوات المصرية التى كانت تسعى لضم هذه البلاد للادارة المصرية. ومن ثم فإنّنا نجد أنّ العلاقة بين كوش والمصريين ومنذ بداية عهد الأسرة الثانية عشرة قد اتسمت بالطابع العدائى.[٣٠]

يعتقد ج.أ. رايزنر أنّ أقدم ذكر لكلمة كوش فى النقوش المصرية يرجع تاريخه لنهاية عهد المملكة المصرية القديمة حيث وجد - حسب اعتقاده - منقوشا داخل مقبرة بالقرب من أسوان.[٣١] إلاّ أنّ هذا الاعتقاد قد ثبت بطلانه فيما بعد عندما اتضح أنّ رايزنر قد قرأ النقش خطأ.[٣٢] فى واقع الأمر أنّ أقدم ذكر لكلمة كوش فى النقوش المصرية نجده على لوحة حجرية وجدت داخل المعبد الشمالى بمدينة

سوهين عشرت بعثة شامبليون - روزلينى[٣٣] على هذه اللّوحة التى أمر بقطعها الجنرال المصرى منتوحتب فى السنة الثامنة عشرة من حكم الملك سنوسرت الأول (١٩٥٤ ق.م. تقريبا). وقد صوّر فى الجزء الأعلى منها الملك سنوسرت الأول واقفا أمام الاله منتو، سيد طيبة، الذى يهب للملك كل بلاد تاسوتى العشرة والتى تتصدّرها 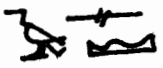 (كاس)[٣٤] أى كوش. مرّة أخرى يجىء ذكر بلاد كوش منقوشا على تلك التماثيل الصغيرة المصنوعة من المرمر والتى تحوى نصوصا سحرية يقصد بها الحاق الأذى بالعدو. يبدأ النقش بذكر اسماء أحد عشر أميرا نوبيا يحتل من بينهم أمير كوش المرتبة الأولى.[٣٥] ويرى بوسنر أنّ تاريخ هذه التماثيل يرجع الى النصف الثانى من القرن العشرين قبل الميلاد وهو التاريخ الذى يوافق النصف الثانى من عهد الملك سنوسرت الأول حتى آخر سنى الملك أمنمحات الثانى.[٣٦] ووجود اسم كوش على هذه التماثيل وتصدّرها لهذه القائمة، كما هو الحال فى لوحة معبد بوهين الشمالى، يدلّ على أنّها كانت تقع الى الجنوب مباشرة من البلاد التى كانت تحت الادارة المصرية. ويستمر ذكر اسم بلاد كوش فى النصوص السحرية هذه فيظهر مرّة ثانية فى عهد الملك سنوسرت الثالث (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م.) حيث نقش على بعض الجرار التى صنعت خصيصا لهذا الغرض وهنا يجىء اسم كوش للمرّة الثالثة فى مقدمة البلاد المنقوشة على هذه الجرار.[٣٧] أمّا التماثيل المصنوعة من الطين والتى وجدت بسقارة بمصر، فبجانب ذكرها لبلاد كوش على رأس القائمة فقد ذكرت اسم ملك كوش واسم أبيه وأمّه ممّا يدل على أهمية كوش فى نظر ملوك الأسرة الثانية عشرة. ويتضح لنا تخوّف ملوك هذه الأسرة من قوّة كوش فى بنائهم لعدد من الحصون الحربية على طول النيل من أكور وكوبان شمالا وحتى سمنة جنوبا.[٣٨] وهذا يعنى أنّ ملوك المملكة المصرية المتوسطة قد احتلّوا كل بلاد النوبة إلاّ أنّهم لم يجرأوا على دخول بلاد كوش. ليس هذا فحسب بل إنّنا نجد أنّ سنوسرت الثالث يكتب نصّا فى سنته الثامنة ويضعه فى قلعة سمنة الحدودية يحذر فيه جنوده ويطلب منهم عدم السماح لأى نوبى بالابحار شمالا "من سمنة" سواء كان ذلك عن طريق النيل أو الصحراء الاّ إذا كان يريد أن يتاجر فى مدينة (ايقن) أويحمل

وسالة رسمية.(٣٩)

هذا ما كان من شأن كوش فى النقوش المصرية، أمّا عن موضعها الجغرافى فهو أمر يختلف فيه علماء المصريات، والشىء الوحيد الذى أجمعوا عليه هو أنّها تقع الى الجنوب من بلاد الواوات، بمعنى أنّه لم تكن لها حدود مشتركة مع مصر أثناء هذه الفترة وإنّما كانت حدودها الشمالية مع واوات فى النوبة السفلى. أمّا عن حدودها الجنوبية فإنّ النقوش تضطرب فى تحديدها. ففى أقدم النقوش التى يرجع تاريخها لعهد المملكة المصرية المتوسطة، والتى تخص شخصا مصريا يدعى أمتى يقول فيه: "لقد تخطيت كوش جنوبا حتى بلغت أطراف الأرض ....."(٤٠) وهناك لوحة حجرية وجدت بالقرب من ادفو ويرجع تاريخها لفترة الاضمحلال الثانية تتحدث عن رحلة الى الجنوب من كوش ويذكر صاحبها أنّ الرحلة قد استغرقت ثلاثة عشر يوما. يمكن أن نضيف الى هذين النقشين ذلك النقش الذى وجد فى منطقة نورى الى الشمال قليلا من الشلاّل الثالث والذى يتحدث عن شخص يدعى وسرحات الذى يعيش فى (عمو) وهى المنطقة التى وجد بها النقش، كما يذهب الى ذلك بوسنر. واسم هذا الموقع نفسه نجده فى القائمة التى تحوى أسماء مناجم الذهب الموجود بمعبد الأقصر والتى تذكر اسم نبتة ثم عمو ثم كوش مبتدئة من الجنوب الى الشمال.(٤١)

من دراسة هذه النقوش نصل الى حقيقة لا تتفق مع عظمة كوش ـ تلك البلاد التى طالما تخوّف منها المصريون فى عهد أعظم ملوك الأسرة الثانية عشرة. فقد حصرت النقوش بلاد كوش فى منطقة صغيرة فيها هى النصوص السحرية تضع كوش الى الشمال من 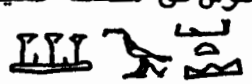 (شاعت) وهى منطقة جزيرة صاى الحالية، بينما تشير الدلائل الأثرية الى أنّ قلعة سمنه كانت النقطة التى تمثل حدود المستعمرة المصرية فى النوبة من ناحية الجنوب. وبهذا تنحصر بلاد كوش بين حدود شاعت الشمالية جنوبا وسمنه فى الشمال وهى منطقة تعتبر من الناحية الجغرافية من أفقر بلاد النوبة وأقلّها كثافة سكانية وهى البلاد المعروفة حاليا باسم بطن الحجر.

كذلك نجد أنّ هذا التحديد الجغرافى يتماشى مع نقش أمنى الذى ذكر بأنّه تخطى كوش جنوبا وأيضا النقش الموجود على لوحة

ادفو الذى يذكر فيه صاحبه بأنّ رحلته استغرقت ثلاثة عشر يوما ،وهى فترة قصيرة تكفى لبلوغ بلد صغير ويقع على مسافة ليست بالبعيدة . وممّا يؤيد هذا التحديد الجغرافى لبلاد كوش هو تلك القائمة الصغيرة التى كتبت على التماثيل الصغيرة والتى تذكر بعض بلاد النوبة المحازية للنيل وهى الوحيدة فى عهد المملكة المصرية المتوسطة التى تذكر اسم واوات مع بعض بلاد النوبة حيث تقع واوات فى الشمال تليها كوش فى الوسط ثم شاعت فى الجنوب .(٤٢)

من هذا يتضح لنا أنّ عظمة كوش والاهتمام الذى حظيت به من جانب المصريين لم يكن بسبب اتساع رقعة أرضها أو الثراء الذى كانت تتمتع به ،وإنّما لكونها الامارة النوبية التى وقفت فى وجه القوات المصرية الغازية ومنعت تقدمها جنوبا .

هذا هو المعروف عن حدود كوش الجغرافية من خلال النقوش المصرية فى هذه الفترة . وهناك سؤال لابدّ من طرحه وهو: ما هى علاقة كوش بحضارة كرمة التى ازدهرت فى منطقة الشلال الثالث والتى تفصل بينها وبين كوش التى عرفناها امارة شاعت ؟.

بعد نهاية الأسرة الثانية عشرة ،وبحلول فترة الاضمحلال الثانية (١٧٨٠-١٥٨٠ ق.م. تقريبا) ، أصاب مصر ضعف وتفكك واضطرابات اضطرّتها لسحب حامياتها من النوبة السفلى. ويبدو أنّ كوش قد استفادت من هذا الفراغ السياسى الذى خيّم على النوبة السفلى فقامت باحتلالها حتى الشلال الأول شمالا ،(٤٣) أمّا من ناحية الجنوب فقد دلّت الشواهد الأثرية على أنّ كوش قد قامت بضم اقليم شاعت والمنطقة التى تقع وراءه متخذة من موقع كرمة الحالية عاصمة لها .(٤٤) وبهذا تكون الحدود الجغرافية لدولة كوش الجديدة - فى فترة الاضمحلال الثانية - قد امتدّت من الشلال الأول شمالا الى ما وراء الشلال الثالث جنوبا .

إنّ النقوش المصرية التى يرجع تاريخها لعهد المملكتين القديمة والمتوسطة ،والتى تناولت موضوع العلاقات بين مصر وبلاد النوبة ،كثيرا ما كانت تجنح للايجاز والغموض فى وصف الأحداث التاريخية المرتبطة بموضوع هذه العلاقات ،ومع ذلك فقد أفادت هذه النقوش كثيرا فى معرفة الأوضاع السياسية والجغرافية المتعلّقة ببلاد النوبة .

الأمارات النوبية فى النوبة السفلى ـ المملكة المصرية القديمة

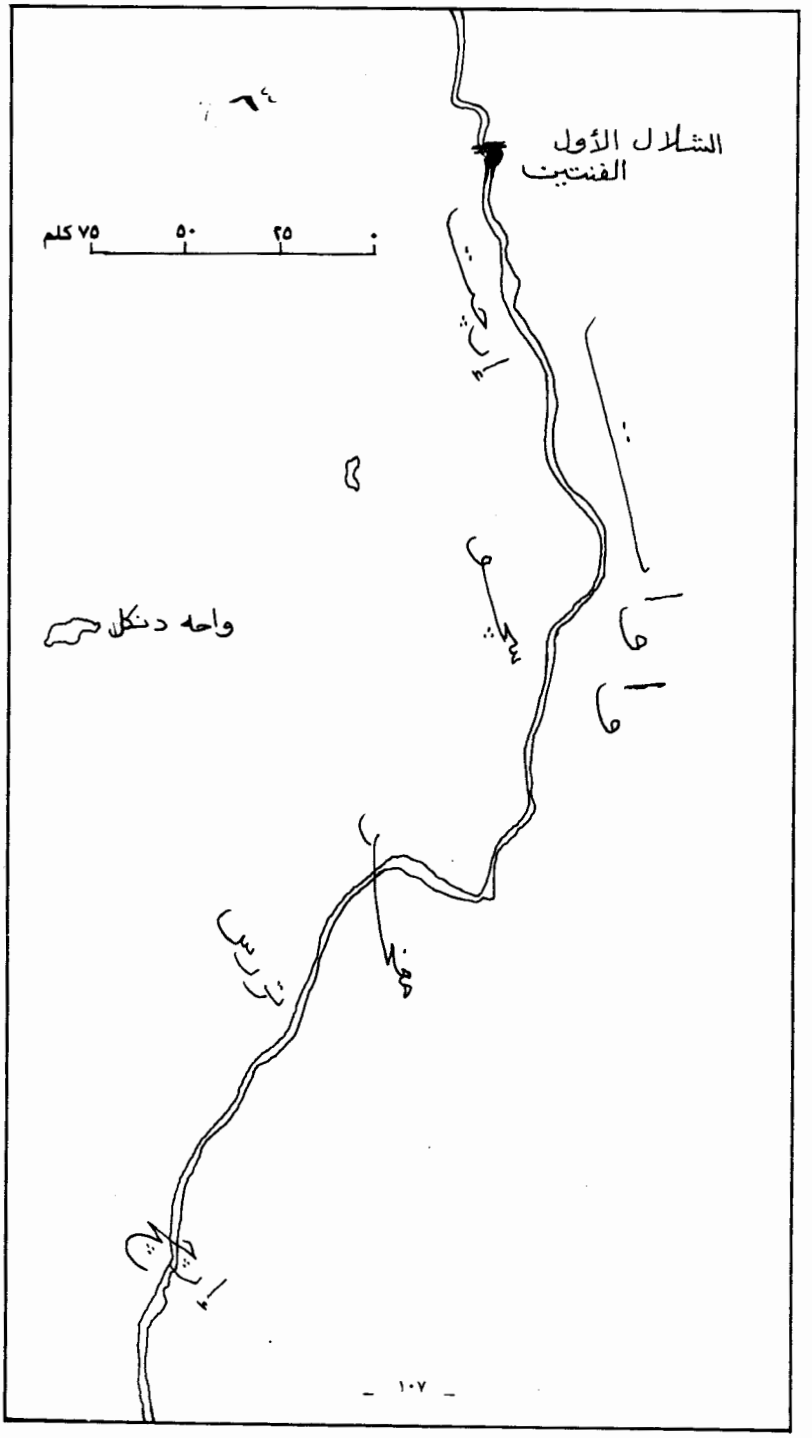

موقع بعض الأمارات النوبية - المملكة المصرية المتوسطة

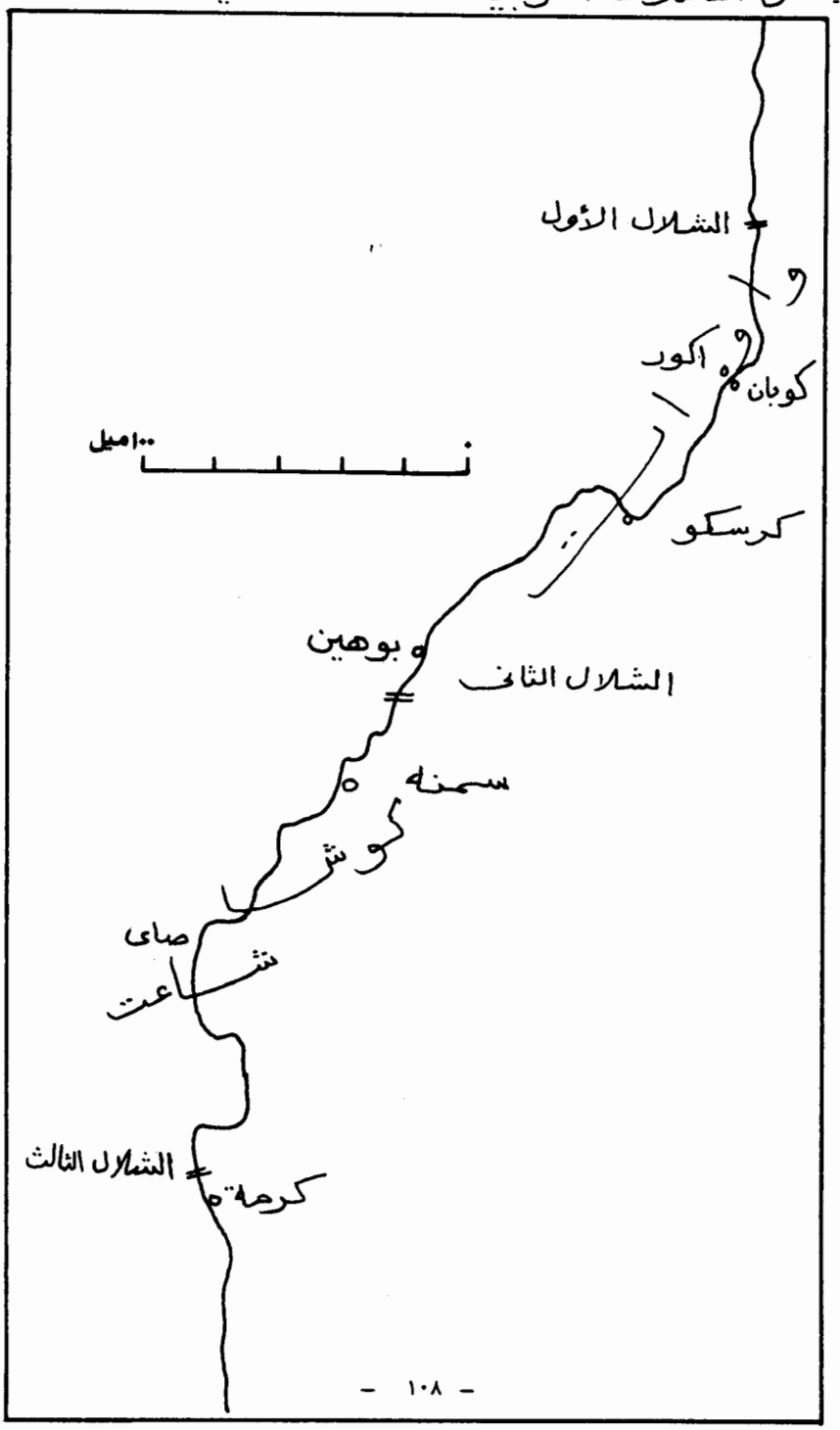

الهوامـــــش :-

(١) كلمة النوبة هنا تعنى تلك البلاد التى كانت تقع الى الجنوب من مصر وقد استعملنا هذه الكلمة استعمالا مجازيا ،وذلـــك لأنّ كلمة نوبى أو نوباوى لم تظهر فى كتابات قدامى المؤرخيـــن إلاّ فى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وذلك عندما تحدّث المـؤرخ اليونانى (Eratosthenes 275-194 B.C.) عن النيل والبـــلاد المجاورة له. أنظر:-

Strabo, Geography, VIII, Book X VII, I, 3 (Trans.)

H.L. Jones, (The Loeb Classical Library, London, 1949).

أمّا عبارة "القومية النوبية" فإنّنا نعنى بها تلك المجموعـات البشرية التى كانت تسكن تلك البلاد.

(٢) A.J. Arkell, "Varia Sudanica", JEA, XXXVI, (London, 1950). pp. 27-29.

(٣) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, (Griffith Institute, Oxford , 1978) p. 512, Aa 32.

(٤) أحمد بن يحى البلاذرى، فتوح البلدان، (القاهرة ،١٩٣٢، صفحـــات ٢٣٨-٢٣٩.

(٥) J. Vercoutter, "Ancient Egyptian Influence in the Sudan", S N R, X L, (Khartoum, 1959), pp. 8-9

(٦) G. Rawlinson, History of Herodotus, Vol. 11, Chapter 28 (London, 1875).

(٧) A.H. Gardiner, "Inscriptions from the Tomb of Si-renpowet I, Prince of Elephantine", Z A S.45,(Leipzig,1908-9),p.139

(٨) حدود الواوات المقصودة هنا هى حدود الواوات الشماليـــــة المتاخمة لحدود مقاطعة تاسوتى الجنوبية.

(٩) A.M. Blackman, Middle Egyptian Stories, I, Bibliotheca Aegyptiaca, II, (1932) p.42.

(١٠) K. Sethe, Urkunden des Alten Reichs. I, (Leipzig,1903), p.124 ff.

(١١) Ibid; P.129; E.Zyhlarz, "The countries of the Ethiopian empire of Kash (Kush) and Egyptian old Ethiopia in the New

Kingdom", Kush, VI, (Khartoum, 1958), p 20.

(١٢) K. Sethe, Urkunden, p 126.

(١٣) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, vol. I, (New York, 1962), p i53 note d.

(١٤) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I,(Oxford University Press, London, 1968), p 76.

(١٥) J. Yoyotte, "Pour une Localisation du Pays de Iam", in BIFAO,52, (Cairo, 1953), 176.

(١٦) D.M. Dixon, "The Land of Yam", JEA,44, (London, 1958) pp 40-55; Fr. Hintze, "Das Kerma-Problem", ZAS,91,(Akademie Verlag, Berlin, 1964), pp 79-85.

(١٧) G.A. Reisner, "Excavations at Kerma", ZAS,52, (Leipzig, 1915), pp 34-49.

(١٨) K. Zibelius, Afrikanische Orts-Und Volkernamen in hieroglyphischen Und hieratischen Texten,(Wiesbaden,1972), pp 78-81; K.-H. Priese, "'rm Und'3m, das Land Irame, Eine Beitrag Zur Topographie des Sudan in Altertum",Altorient. Forsch.1, (1974),pp 7-41.

(١٩) C. Bonnet, "Fouilles archeologiques ă Kerma (Soudan); rapport Préliminaire de La campagne 1977-1978), (Geneva, 1978), pp 107-127; Remarques sur la Ville de Kerma. In Hommages a la memoire de Serge Sauneron 1927-1976,vol.1: Egypte Pharaonique, (Cairo, 1979), pp 3-10.

(٢٠) K. Sethe, Urkunden, I, p 125.

(٢١) ibid; pp 126-127.

(٢٢) ibid, pp 110-111.

(٢٣) ibid., p 101; J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, § 146

(٢٤) لقد قاد التقارب اللّفظى بين كلمتى نحسى ومحسى بعض النـــاس للاعتقاد بأنّ كلمة محسى ما هى إلاّ تحريف لكلمة نحسى المصرية القديمة. وهذا اعتقاد خاطىء ذلك لأنّ لفظ نحسى كان يطلـــق بصفة عامّة على كل شخص يسكن البلاد الواقعة الى الجنوب من الشلاّل الأول بما فى ذلك الصحراء الشرقية التى كان يسكنهـا الميجا أو البجا الحاليون. أنظر:-

K. Sethe, Urkunden.I, P 101; H.A. Mac Michael, A History of the Arabs in the Sudan, vol. 11, (Cambridge, 1922), pp 23, 80; A.J. Arkell, A History of the Sudan,(London,1961), p 41; Yusuf Fadl Hassan, The Arab and the Sudan, (Edinburgh, 1967), pp 143,144.

(٢٥) G. Posener, 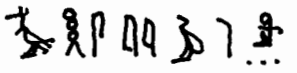 et

ZAS, 83, (Akademie Verlag, Berlin,1958), pp 38-43.

(٢٦) K. Sethe, Urkunden, p 101.

(٢٧) B. Porter and R.L.B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, V11, (Oxford, 1951), p 84.

(٢٨) G.Posener,"pour une localisation du pays Koush au Moyen Empire", Kush, V1, (Khartoum,1958), p 52.

(٢٩) ibid,. p 39.

(٣٠) P.E. Newberry and F. Ll. Griffith, Beni Hassan,1. Egypt Exploration Fund, London, 1893), pp 8, 10; K. Sethe, Urkunden,lV, pp 697-9.

(٣١) G.A. Reisner, HAS,V1, (Harvard University Press, Cambridge, U.S.A., 1923), p 536.

(٣٢) K. Sethe, "Zur alten Geschichte des agyptischen Seeverkehrs mit Byblos und dem Libanongebiet", ZAS, 45, (Leibzig, 1908-9), pp 7-14.

(٣٣) J. Leclant, "Recherches sur la toponymie meroitique" in La Toponymie, antique, Strasbourg, 1975), p 156.

(٣٤) J. H. Breasted, The Ancient Records of Egypt, 11 § 510.

(٣٥) G. Posener, Kush, V1, p 43

(٣٦) ibid.

(٣٧) K. Sethe, Die Achtung feindlicher Fursten Volker und Dinge auf altagyptischen Tongefasscherben des Mittleren Reiches, Abhandlungen der Preuss, (Berlin, 1926);G.Posener, Kush, V1, pp 42-43.

(٣٨) W.B. Emery, Egypt in Nubia, (London, 1965), pp 143-151.

(٣٩) J. H. breasted, Ancient Records of Egypt, 1 §§ 651-652.

(٤٠) K. Sethe, Urkunden, V11, p 14, lines 14-15.

(٤١) J. Vercoutter, " New Egyptian Texts from the Sudan", Kush, 1V, (Khartoum, 1956), pp 70-71; G Posener, Kush, V1 p 56.

(٤٢) G. Posener, Kush, V1, p 60.

(٤٣) T.Säve-Söderbergh,"A Buhen Stela from the Second interm-ediate Period", JEA,35 (London, 1949), pp 50 off.; Labib Habachi, "The Second Stela of Kamose and his Struggle against the Hyksos ruler and his capital", ADAIK,8, (Gluckstad, 1972), p 39.

(٤٤) G.A. Reisner, HAS,V1; A.J. Arkell, A History of the Sudan, p 83.

اختصـــــارات :-

ADAIK : Abhandlungen des Deutschen Archaologischen Institutes Kairo.

ARE : Ancient Records of Egypt

BIFAO : Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale.

HAS : Harvard African Studies.

JEA : Journal of Egyptian Archaeology.

URK : Urkunden des aegyptischen Altertums.

ZAS : Zeitschrift fur Agyptische sprache und Altertumskunde.